الجملة المعترضة فى القرآن الكريم

ـ دراسة بلاغية ـ

The Parenthetical Sentences in the Holy Quran - A Rhetorical Study –

د. صاحب اسلام*

Abstract:

This study aims to prove that the Parenthetical Sentences in the Quran are not a way to improve the beauty of literature, but if they appeared in a convenient location they became the requirements of the text. The main findings of this study include the parenthetical sentences in the Holy Quran characterized by specific semantics which is known by the context of Ayat and not only because of assertion, embellishment or clarification. These sentences would inspire the attention from the reciter of Quran to think of the underlying meaning. The parenthetical sentences in Quran cannot be nullified as this will divert the true meaning of Ayat e Kareemas.

إن الجملة المعترضة في القرآن الكريم ليست وسيلة لتحسين الكلام فحسب، وليس حشوا يمكن الإستغناء عنه، بل إنه إذا وقع موقعه المناسب كان من مقتضيات النظم، ومن متطلبات المقام، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى، فهو يحمل بجانب كونه جزءا من المعنى الأصلي معاني فرعية أخرى، تلتحم جميعا في تكوين معنى كلي. وأن الجملة القرآنية عموما قد اختيرت بعناية، ثم نسقت في سلك واحد، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب.

ان الجملة المعترضة فى القرآن الكريم وردت لأغراض بلاغية متعددة ولمعانى شتى تستخدم فى كل مقام وموضع لمقصدٍ وغرضٍ يقتضى ذالک المحل ولوأهملت مراعاة الجملة المعترضة فى تلک المواضع يستلزم ضعف التاليف والتعقيد فى النظم.

* الأستاذ بمركز شيخ زايد الإسلامي، جامعة بيشاور.

وثراثنا الاسلامى الذى تفتخر به الأمة الاسلامية مليئة بذخائر علمية من علم النحو والصرف والبلاغة والعلوم الاسلامية الاخرى يجد كل باحث متخصص فى فنه ومادته ما يحتاج اليه شفاء كاملاًـ

وبذل علماء النحو والصرف والبلاغة جهودهم المضنية فى دراسة نظم القرآن الكريم وكلماته وآياته وجُمله من حيث الاشتقاق والاعراب والبلاغة فى جميع انواعها من المعانى والبيان والبديع۔

ومع ذالك لم تحظى الجملة المعترضة اهتماماً بالغا حيث توجد هذه الجملة مبعثرة فى كتب الفسير والبلاغة مع بعض الاشارات والتعريفات لهاـ لذا أحسست ان أجمع تراث العلماء المنتشرة فى الكتب والرسائل وأرتب ترتيباً يستهدف القارى والباحث بفهم الجملة المعترضة من جميع نواحيها وأغراضها البلاغية الموجودة في آيات القرآن الكريم في صورة الجمل الاعتراضية.

تعريف الجملة المعترضة:

١. الاعتراض لغة: – المنع، يقال: (اعترض الشيئ، صار عارضا، كالخشبة المعترضة في النهر، يقال: اعترض الشيئ دون الشيئ، أي: حال دونه).[١]

قال ابن فارس (٣٩٥هـ): (إن من سنن العرب أن يعترض بين الكلام وتمامه، كلام لا يكون إلا مفيدا) [٢]وهذا المعترض هو ما اصطلح على تسميته بالجملة الإعتراضية.

٢. وحدالجملة الاعتراضية في الاصطلاح:[أنها تأتي في أثناء الكلام — وليس المراد بالكلام هنا: المسند والمسند إليه فقط، بل جميع ما يتعلق به من الفضلات والتوابع — فاصلة بين متلازمين، سواء أكانا مفردين، أو كانا جملتين متصلتين معنى، وذلك لإفادة الكلام تقوية، أو إيضاحا وبيانا، لنكتة سوى دفع الإيهام][٣]. وعرفها الزركشي بقوله: [هو أن يؤتى في أثناء الكلام، أو كلامين متصلين معنى، بشيئ يتم الغرض الأصلي بدونه، ولا يفوت بفواته، فيكون فاصلا بين الكلام أو الكلامين لنكتة.. ثم يقول: وقال الشيخ عز الدين في أماليه: (الجملة المعترضة تارة تكون مؤكدة، وتارة تكون مشددة، لأنها إما ألا تدل على معنى زائد على ما دل عليه الكلام، بل دلت عليه فقط، فهي مؤكدة، وإما أن تدل عليه وعلى معنى زائد، فهي مشددة][٤]

الأغراض البلاغية للجملة الإعتراضية:

يأتي الإعتراض – إضافة إلى أنه مؤكد لمفهوم الكلام الذي وقع فيه، ومقرر له في نفوس السامعين – لأغراض بلاغية كثيرة منها:

١. التنزيه: كقوله سبحانه: (ويجعلون لله البنات– سبحانه– ولهم ما يشتهون)[٥] فقوله: (سبحانه): معترضة، للمبادرة إلى تنزيه الله عن اتخاذ البنات، و — سبحانه –: واقعة موقع المصدر الذي هو التنزيه، فكأنه قيل: أنزهه تنزيها، عما يقوله أولئك الخراصون. وهم: خزاعة وكنانة، كانوا يقولون: الملائكة بنات الله تعالى، وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوتها. وسبحانه): تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك، أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة، وهو في المعنى الأول حقيقة، وفي الثاني مجاز[٦] ووقوع التنزيه قبل تمام الكلام، فيه إشارة إلى شناعة هذا الكلام وفظاعته.

٢. للتسديد: كقوله سبحانه: (وإذا بدلناآية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون)[٧] فقوله تعالى – والله أعلم بما ينزل –: [جملة معترضة بين الشرط وجوابه، للمسارعة إلى توبيخ المشركين، وتجهيلهم][٨] .

وأفادت جملة الإعتراض: أن تبديل آية مكان آية، كان لحكمةيعلمها الله، فالله عليم بما ينزل من الآيات، وما سيبدل منها، ولو حذفت جملة الإعتراض، لم يكن في الآية إشارة إلى أن تبديل الآيات يتم بعلم الله، ومن هنا كانت جملة الإعتراض مسددة للمعنى تسديدا تاما. قال الآلوسي: (والجملة إما معترضة لتوبيخ الكفرة، والتنبيه على فساد رأيهم، وفي الالتفات إلى الغيبة، مع الاسناد إلى الاسم الجليل، ما لا يخفى من تربية المهابة، وتحقيق معنى الاعتراض. أو حالية، كما قال أبو البقاء وغيره)[٩]

٣. لتنبيه على أمر هام: نحو قوله تعالى: (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم — ومن يغفر الذنوب إلا الله — ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون)[١٠]

أفاد الإعتراض: الحث على الإستغفار، والتنبيه على أن الله سبحانه هو الغفور لعباده، فالمغفرة لا تكون إلا منه سبحانه، وفي ذلك ترغيب للمذنبين وتنشيط لهم أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل، غير يائسين من عفوه تعالى، ورحمته الواسعة.[١١]

وورود هذا التركيب — ومن يغفر الذنوب إلا الله — على هذا النحو، يدل على أمور عدة منها:

أولا:– دلالة اسم الذات بحسب ما يقتضيه المقام من معنى الغفران الواسع، وإيراد التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار، فلم يقل: (وما يغفر الذنوب إلا الله)، تقرير لذلك

المعنى، وتأكيد له، كأنه قيل: هل تعرفون أحدا يقدر على غفران الذنوب كلها صغيرها وكبيرها، وسالفها، وغابرها، غير من وسعت رحمته كل شيء..؟

ثانيا:– الإتيان بالجمع المحلى باللام في قوله: (الذنوب)، إعلام بأن التائب إذا تقدم بالاستغفار، يتلقى بغفران ذنوبه كلها، فيصير كمن لا ذنب له.

ثالثا:– دلالة النفي بالحصر والإثبات، على أنه لا مفزع للمذنبين إلا كرمه وفضله، وذلك أن من وسعت رحمته كل شيئ، لا يشاركه أحد في نشرها كرما وفضلا.

رابعا:– في إبداء سعة الرحمة، واستعجال المغفرة، بشارة عظيمة، وتطييبا للنفوس، فإذا نظر العبد إلى هذه العناية الشديدة، والإهتمام العظيم في شأن التوبة، يتحرك نشاطه، ويهتز عطفه، فلا يتقاعس عنها[١٢].

٤. لدفع الإيهام: وذلك كما في قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون).[١٣]

عد المفسرون قوله تعالى: (والله يعلم إنك لرسوله) جملة معترضة، مقررة لمضمون ما قبلها من كونه صلى الله عليه وسلم – رسول من عند الله تعالى حقا.

وفائدة الاعتراض: أنه لو اتصل التكذيب بقولهم، لربما توهم أن قولهم في حد ذاته كذب، فأتبع بالاعتراض لدفع هذا الإيهام[١٤]

٥. لتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر يتعلق بهما:

كما في قوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه – حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين – أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير)[١٥]. فقوله سبحانه: (حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين)، إعتراض بين قوله (ووصينا الإنسان بوالديه) وبين الموصى به (أن اشكر لي ولوالديك)، وفائدة هذا الإعتراض: هو توجيه نظر الأبناء إلى الإهتمام بالأم أكثر من الإهتمام بالأب لضعفها، فذكر ما تكابده الأم، وتعانيه من المشاق والمتاعب، في حمله وفصاله، هذه المدة المتطاولة، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا[١٦] .

٦. للتعجيز والتحدي: كقوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[١٧]

فقوله تعالى، (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط وهو قوله: (فإن لم تفعلوا) وبين جوابه، وهو قوله: (فاتقوا النار ، لا محل لها من الإعراب، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته، وأن ذلك غير متاح لهم، ولو تظافرت هممهم عليه.

كما نبه بالاعتراض على عجز المخاطبين في المستقبل، عن الإتيان بسورة من مثل سور القرآن، حتى لا يتوهم المخاطبون أنهم قادرون على ذلك في المستقبل، وإن لم يكونوا قادرين عليه في الماضي، أو الحاضر.

قال الدكتور تمام حسان: إن قوله: – ولن تفعلوا –: (اعتراض للتعجيز والتحدي، بواسطة تأبيد النفي مستقبلا)[١٨]

وقال الآلوسي: (والجملة ــ ولن تفعلوا – اعتراض بين جزأي الشرطية، مقرر لمضمون مقدمها، ومؤكد لإيجاب العمل بتاليها، وهذه معجزة باهرة، حيثأخبر بالغيب الخاص علمه به سبحانه، وقد وقع الأمر كذلك، كيف لا، ولو عارضوه بشيء يدانيه، لتناقلته الرواة، لتوفر الدواعي. وما أتى به مسيلمة لم يقصد به المعارضة، وإنما ادعاه وحيا.)[١٩]

والمعنى: إن ارتبتم أيها المشركون في شأن القرآن الذي أنزلنا على عبدنا محمد — صلى الله عليه وسلم – فأتوا بسورة من مثله في سمو الرتبة، وعلو الطبقة، [وادعوا آلهتكم، وبلغاءكم، وجميع البشر ليعينوكم، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، في حكمة معانيه،وحسن بيانه. وفي هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم، إذ عرض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التي زعموا أنهم أهل لها.][٢٠]

هذه نماذج مما ذكره البيانيون، والمفسرون، من أغراض بلاغية للجملة المعترضة، وليس غرضي الإستقصاء، فذلك أمر بعيد المنال، لا يتسع له هذا البحث، وأكتفي من القلادة ما يحيط بالعنق.

الخاتمة

على ضوء من الدراسة السابقة، يمكنني تسجيل النتائج التالية:

١. إن الإعتراض ليس وسيلة للتحسين فحسب، وليس حشوا يمكن الإستغناء عنه، بل إذا وقع موقعه المناسب، كان من مقتضيات النظم، ومتطلبات المقام، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى.

٢. لم يكن من العبث صياغة الجملة في اللغة العربية بأشكال مختلفة، فلكل صورة هدف، ولكل تركيب غاية، وفي ذلك توسع في الأساليب، ودقة في الأداء والتعبير.

٣. إن توظيف الجملة الإعتراضية لتحقيق بعض المعاني التي يريد الأديب التعبير عنها ليس بالأمر الجديد، فقد عرف تراثنا الأدبي هذه الظاهرة الأسلوبية، وترددت في أرقى نماذجه وهو القرآن الكريم، كما تكررت في كلام بلغاء العرب وفصحائهم، خلافا لمن ادعى قلته، أو حاول حصره في دائرة الجمل الدعائية.

٤. بينت من خلال الأمثلة المضروبة، أن الإعتراض يقع في أثناء الكلام، بين جملتين متصلتين لفظا أو معنى، لا بعد تمامه كما تصور بعض البيانيين والمفسرين.

٥. وفي وجود الجملة المعترضة فى القرآن الكريم إشارة الى إعجاز كلام الله تعالى من حيث النظم والأسلوب وليس فى القرآن جملة أو كلمة زائدة التى لا فائدة فيها.

الهوامش:

---

[١]. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (مادة عرض) ص ٤٢٥.

[٢]. أحمد بن فارس: الصاحبي. ص ٢٠٩.

[٣]. -انظر: ابن جني: الخصائص (مرجع سلبق) ج١/ ص ٣٣٥. ؛ ابن هشام الأنصاري: المغني (مرجع سابق) ص ٥٠٦.

[٤]. الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله (٧٩٤هـ): البرهان في علوم القرآن. ج٣/ ص ٦٢.

[٥]. سورة النحل: آية / ٥٧.

[٦]. الآلوسي: روح المعاني (مرجع سابق) ج١٤/ ص ١٦٧. ؛ دز عبد الفتاح لاشين: المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ٣٦٣.

[٧]. سورة النحل: آية / ١٠١.

[٨]. د. محمد السيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ج١٤/ ص ١٨٨.

[٩]. الآلوسي: روح المعاني (مرجع سابق) ج١٤/ ص ٢٣١.

[١٠]. سورة آل عمران: آية / ١٣٥.

[١١]. الزمخشري: الكشاف (مرجع سابق) ج١/ ص ٢١٧-٢١٨، ومحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط. ج٣/ ص ٥٩.

[١٢]. أبو حيان: البحر المحيط (مرجع سابق) ج٣/ ص ٢٦٠. والآلوسي: روح المعاني (مرجع سابق) ج٣/ ص ٦٠.

[١٣]. سورة المنافقون: آية / ١.

١٤. الزمخشري: الكشاف، ج٤ / ص ١٠٧. ومحمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير ج٢٨/ ص ٢٣٥، وشهاب الدين الآلوسي: روح المعاني: ج٢٨/ ص١٠٨.

١٥. د. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها (مرجع سابق) ص ٥٠٣. والزمخشري: الكشاف (مرجع سابق) ج٣/ ص ٤٩٣.

١٦. سورة البقرة: الآيتان / ٢٣، ٢٤.

١٧. د. تمام حسان: البيان في روائع القرآن: ص ١٨٤.

١٨. شهاب الدين محمود الآلوسي: روح المعاني: ج١/ ص ١٩٨

١٩. أيضا

٢٠. د. محمد السيد طنطاوي: التفسير الوسيط، ج١/ ص ٩٦.